سعد زغلول ـ ١١ ـ

وقال صاحب سرِّ (م) باشا : أَلقى إليَّ الباشا ذاتَ يوم : أنَّ (سعداً) مُصَبِّحُنا زائراً[١] ، وكانت بين الرَّجُلين خاصةٌ وأسبابٌ وطيدةٌ . وللباشا موقعٌ أعرفه من نفس سعدٍ ، كما أعرف الشُّعلةَ في بركانها ؛ أمَّا سعدٌ ؛ فكان قد انتهى إلى النِّهاية ؛ التي جعلته رجلاً في إحدى يديه السِّحرُ ، وفي الأخرى المعجزة ، فهو من عظماء هذه البلاد كقاموس اللُّغةِ من كلماتِ اللغةِ : يُرَدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليه في تعريفه ، ولا تصحُّ الكلمةُ عند أحدٍ إلا إذا كانت فيه الشَّهادةُ على صحَّتها .

وجاءنا سعدٌ غُدْوَةً ، فأسرعتُ إلى تقبيل يده قبلةً لا تشبهها القُبلات ؛ إذ مُثِّلتْ لي من فرحها كأنَّها كانت منفيَّةً ، ورجعت إلى وطنها العزيز حين وُضعتْ على تلك اليد .

إنَّ الرَّجل العظيم إذا كان بارّاً بأبيه ، عارفاً قدرَه ، مُدرِكاً عظمتَه ؛ يشعر حين يقبِّل يدَ أبيه كأنَّه يسجدُ بروحه سجدةً لله على تلك اليد الَّتي يقبِّلها ، ويجد في نفسه اتِّصالاً كهربائيّاً بين قلبه ، وبين سرِّ وجوده ، ويَخُصُّه العالَمُ بلمسةٍ كأنَّ قُبلتَه نبضتْ في الكون . وكلُّ هذا قد أحسسته أنا في تقبيلي يدَ سعدٍ ، وزدتُ عليه شعوري بمثل المعنى الَّذي يكون في نفس البطل حين يقبِّل سيفَه المنتصر .

وضحك لي سعد باشا ضحكتَه المعروفة ، الَّتي يبدأها فمُه ، وتتمِّمها عيناه ، ويشرحها وجهُه كلُّه ، فتجد جوابَها في روحك كأنَّه في روحك ألقاها .

والرَّجلُ من النَّاس إذا نظر إلى سعدٍ وهو يتبسَّم ؛ رأى له ابتسامةً كأنَّها كمالُ يتواضع ، فيُحسُّ كأنَّ شيئاً غيرَ طبيعيٍّ يتَّصل منه بشيءٍ طبيعيٍّ ، فينتعشُ ، ويثبُ في وجوده الرُّوحي وثبةً عاليةً ، تكون فرحاً ، أو طرباً ، أو إعجاباً ، أو خشوعاً أو كلَّها معاً . غير أنَّ الرجلَ من الحكماء إذا تأمل وجهَ سعدٍ وهو يضحك ضحكتَه المطمئنَّةَ المتمكِّنةَ من معناها المقِرِّ ، أو المنكرِ ، أو السَّاخرِ ، أو أيِّ المعاني ، حسب نفسَه يرى شكلاً من القول لا من الضَّحك ، وظهرت له تلك الابتسامةُ الفلسفيَّة متكلمةً ، كأنَّها مرَّةً تقول : هذا حقيقي . ومرَّةً تقول : هذا غير حقيقيٍّ .

---

(١) يقال : صبَّحه ـ بتشديد الباء ـ ؛ أي : جاءه صبحاً . (ع) .

إنَّ سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنيٌّ إلا بعينٍ فيها دلائلُ أحلامِها ، كأنَّما هو شخصُ فكرةٍ ، لا شخصُ إنسانٍ ، فإذا أنت رأيتَه ؛ كان في فكرك قبل أن يكون في نظرك ؛ فأنت تَشهدُه بنظرين : أحدهُما الذي تُبصِرُ به ، والآخر ذاك الذي تؤمنُ به .

عبقريٌّ كالجمرة الملتهبة ، لا تحسِبه يعيش ، بل يحترق ، ويُحرق ؛ ثائرٌ كالزَّلزلة فهو أبداً يرتجُّ ، وهو أبداً يَرُجُّ ما حوله ؛ صريحٌ كصراحة الرُّسُل ، تلك الَّتي معناها : أنَّ الأخلاق تقول كلمتَها .

رجلُ الشَّعب الذي يُحِسُّ كلُّ مصريٍّ : أنَّه يملك فيه مَلِكاً من المجد . وقد بلغ في بعض مواقفه مبلغَ الشَّريعة ، فاستطاع أن يقولَ للناس : ضعوا هذا المعنى في الحياة ، وانزِعوا هذا المعنى من الحياة .

* * *

قال صاحب السِّرِّ : وانقضت الزِّيارة ، وخرج سعد ، والباشا إلى يساره ، فلما رجع من وداعه قال لي : والله يا بني ! لكأنَّما زاد هذا الرَّجلُ في ألقاب الدَّولة لقباً جديداً ، ثُمَّ ضحك ، وقال : أتدري ما هو هذا اللَّقب ؟ قلت : فما هو يا باشا ؟!

قال : والله يا بنيَّ ! ما من (باشا) في هذه الدَّولة يكون إلى جانب سعدٍ ، إلا وهو يشعر : أنَّ رتبته (نصف باشا) . . .

هذا رجلٌ قد بلغ من العظمة مبلغاً تَصَاغر معه الكبير ، وتضاءلَ العظيم ، وتقاصَر الشَّامخ ؛ نعم ، وحتى ترك أقواماً من خصومه العظماء ، كفلانٍ ، وفلانٍ ، وإنَّ الواحدَ منهم ليلوحُ للشَّعب من فراغه ، وضعفِه ، وتَطَرُّحِه كأنَّه ظلُّ رجلٍ ، لا رجلٌ .

وقد أصبح قوةً عاملةً لا بدَّ من فعلها في كل حيٍّ تحت هذا الأُفق ، حتى كأنَّ معاني نفسِه الكبيرة تنتشر في الهواء على النَّاس ، فهو قوَّةٌ مرسَلةٌ لا تُمسَك ، ماضيةٌ لا تُردُّ ، مقدورةٌ لا يُحتال لها بحيلةٍ .

هذا وضْعٌ إلهيٌّ خاصٌّ ، لا يشبهه أحدٌ في هذه الأمَّة ، كميدان الحرب لا تشبهه الأمكنة الأخرى ؛ فقد غَامرَ سعدٌ في الثَّورة العرابيَّة ، وخرج منها ، ولكنَّها هي لم تخرج منه ؛ بل بقيت فيه ؛ بقيت فيه تتعلَّم القانونَ والسِّياسةَ ،

وتُصلح أغلاطَها ، ثمَّ ظهرت منه في شكلها القانوني الدَّقيق . وبهذا تراه يَغْمرُ الرِّجال مهما كانوا أذكياء ؛ لأنَّ فيه ما ليس فيهم ، وتراهم يظهرون إلى جانبه أشياء ثابتةً في معانيها ، أمَّا هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية .

وتلك الثَّورة هي الَّتي تتكلَّم في فمه أحياناً ، فتجعل لبعض كلماته قوَّةً كقوة النَّصر ، وشهرةً كشهرة موقعةٍ حربيَّةٍ مذكورة .

ولمَّا كان هو المختار ليكون أباً للثَّورة ـ حرمته القدرةُ الإلهية النَّسلَ ، وصرفت نزعةَ الأبوَّة فيه إلى أعماله التَّاريخيَّة ، ففيها عنايتُه ، وقلبُه ، وهمومُه ، وهي نسلٌ حيٌّ من روحه العظيمة ، ويكاد معها يكون أسداً يزأرُ حولَ أشباله .

ولن يُذكرَ السِّياسيُّون المصريُّون مع سعدٍ ، ولن يذكر سعد نفسُه إذا انقلب سياسيّاً ، فإنَّ المكانَ الخاليَ في الطبيعة الآن هو مكانُ رجل المقاومة ، لا رجلِ السِّياسية ، وهذا هو السَّبب في أنَّ سعداً يُشْعِر الأمَّةَ بوجوده لذةً كلذَّة الفوز ، والانتصار ، وإن لم يفز بشيءٍ ، ولم ينتصر على شيءٍ ، فاطمئنانُ الشَّعب إلى زعيم المقاومة ، هو بطبيعته كاطمئنان حامل السِّلاح إلى سلاحه .

وسعد وحده هو الذي أفلح في أن يكون أستاذَ المقاومة لهذه الأمَّة ؛ فنسخ قوانينَ ، وأوجد قوانين ، وحمل الشَّعبَ على الإعجاب بأعماله العظيمة ، فنبَّه فيه قوةَ الإحساس بالعظمة ، فجعله عظيماً ، وصرفه بالمعاني الكبيرة عن الصَّغائر ، فَدفعه إلى طريق مستقبله ، يُبدع إبداعَه فيه .

إنَّ هذا الشَّرقَ لا يحيا بالسِّياسة ، ولكن بالمقاومة ما دام ذلك الغربُ بإزائه ، والفريسةُ لا تتخلَّص من الحلقِ الوحشيِّ إلا باعتراض عظامها الصُّلبة القويَّة في هذا الحلق .

وكم في الشَّرق من سياسيٍّ كبيرٍ يجعلونه وزيراً ، فتكون الوظيفة هي الوزير لا نفسُ الوزير ، حتَّى لو خلعوا ثيابَه على خشبةٍ ، ونصَّبوها في كرسيِّه ؛ لكانت أكثرَ نفعاً منه للأمَّة ، بأنَّها أقلُّ شرّاً منه . . .

يا بنيَّ ! كلُّ الناس يرضَون أن يتمتَّعوا بالمال ، والجاه ، والسِّيادة ، والحكم ، فليست هذه هي مسألة الشَّرق ، ولكن المسألة : مَن هو النَّبيُّ السِّياسيُّ الذي يرضى أن يُصْلَب . . . ؟

* * *